الدرس البلاغي بين الواقع والمأمول

د. محمد الهادي عطوي

جامعة باجي مختار- عنابة

الملخّص:

يحاول هذا البحث كشف اللثام عن بعض القضايا التي أثيرت حول الدرس البلاغي والتي تعدّ قيمة ثابتة في الفكر اللغوي العربي أصالة وحداثة، ولكنّها أصبحت تتأرجح بين السخط والرضا والرفض والقبول، والليونة والتعصّب، خاصة بعدما مسّت لغتَنا أحداثٌ وتطورات جديدة ومعقّدة، جعلت بعض المعايير البلاغية عسيرة في الإنشاء والتحليل بسبب التغيّر في نمط الحياة جملة، وهو ما جعل الكثير من الباحثين يزعمون بأنّ البلاغة لم تعد تساير روح العصر ومقتضياته، ومتغيّراته .

ولمّا انقسم النّاس وتألّفوا وتألّبوا وتعصّبوا في هذا الشأن اصطُنعت لمعالجة الدرس البلاغي محاور كثيرة في المؤتمرات والملتقيات والندوات ،فمن قائل بقصورها وجمودها، ومنهم من يقول مازالت قائمة بعد ولن تداعى أركانها مهما حاولت المناهج المستحدث أن تكون بديلا عنها أو وريثا لها.

وعلى إثر ذلك نودّ الوقوف على الأسئلة الآتية: هل البلاغة جديرة بأن تحظى بعناية أبنائها وذلك بوضع تدابير فكرية، وضوابط معرفية ومنهجية تساير المعطيات الجديدة في فلسفة العلوم؟ وهل، فعلا، هناك عجز في الدرس البلاغي أم هو شرخ وقع بين الأجيال المتلاحقة؟ وما علاقة البلاغة بفنّ تحليل الخطاب ومناهجه المصطنعة للدرس والتحليل؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ التواصل البلاغي؛ المناهج الحديثة؛ الأصالة؛ الحداثة.

Summary:

This research attempts to study some rhetorical questions as a fixed value in Arab linguistic thought in terms of originality and modernity, but it has become a fluctuation between rejection and acceptance, mildness and intolerance, especially after the impact of our language on new events and complex developments have led to the difficulty of certain rhetorical measures in the process of creativity and analysis due to the change of life style. That's why researchers have argued that rhetoric no longer fits the demands of the times and its changes.

Researchers have chosen to address many rhetorical lessons in conferences, forums, and symposia, because of the divergence in the study of these topics, some of whom have said that it is deficient and inflexible, and some of them say that they still exist and will not be lost, even as the new methods attempt to replace it or be an heir.

As a result, we would like to answer the following questions:

- Is it possible to develop appropriate intellectual measures for Arabic rhetoric, with its cognitive and methodological controls that may correspond to the new data of the philosophy of science?

- Is there really a stagnation in the rhetorical lesson or a discontinuity between the generations?
- What is the relationship between rhetoric and the art of discourse analysis and its methods?

Keywords:

Rhetoric; rhetorical communication; modern methods; originality; Modernity.

البلاغة مملكة ممتدة الأطراف، آخذة في كلّ علم من علوم العربية والشريعة، عريقة الأصل، فإذا وصفناها بالقصور جرّدناه من ملكها، وأضعفنا سياستها، وأسقطنا عرشها، ووجّهناها إلى طريق الحتف والزوال، وهي في الحقيقة لا تستحقّ ذلك؛ لأنّ صنعتها وقوانينها هي التي التبست بهذه الأوصاف.

فإذا سألنا من أقام دستور هذه المملكة ؟ وإذا بحثنا عمّن اخترق هذه القوانين وجمّدها؟

قلنا : إنّه الإنسان نفسه. فإذن المسألة في الإنسان نفسه لا في البلاغة، ومن هنا أبدأ من نتيجة بحث تقدّمت به سابقا[1] عنوانه: البلاغة من سلطة المعيار إلى جمود العقل، فأقول إنّ الأزمة أزمة عقل، لا أزمة مقاييس. أي: أزمة ضبط التفكير، وتوحيد المعرفة والعلم وفق ما تقتضيه التصوّرات والمستجدّات.

1- **مفهوم البلاغة**:

قبل أن تصير البلاغة علما له أبوابه وقوانينه ومصطلحاته، ونظرياته كانت دالة على صفة للكلام، موضوعها المعنى ، ومنتهاها الفهم والتقبّل، وكونها صفة للكلام؛ لأنها اختيار فردي حرّ يتعلّق بجودة الأداء في اختيار الأساليب وتأليفها التي يتمّ بموجبها الفهم والإقناع. ومن ثمّ لا يقال للكلمة **"بليغة"**، وإن كانت فصيحة، لأنّ الفصاحة تتعلّق باللفظ،"والألفاظ لا تفيد حتّى تؤلّف ضربا خاصا من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"[2]. وبذلك تكون البلاغة بالألفاظ المتتابعة ومعانيها معا، هذا يمنحها أداء فيميّزها، ويقودها للتأثير الذي يتحقّق به الغرض والقصد. وبذلك فهي"صفة الكلام لا من صفة المتكلّم ، فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله عزّ وجلّ بأنّه بليغ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام"[3]، ويرى أبو هلال العسكري بأنَّ تسميتنا المتكلم بأنّه بليغ تَوسُّع، وحقيقته أنَّ كلامه بليغ، ويَستدلُّ على ذلك بقوله: فلان رجل مُحكَم وتعني أنّ أفعاله مُحكَمة. قال الله تعالى: "حكمةٌ بالغة" فجعل البلاغة من صفة الحكمة ، ولم يجعلها من صفة الحكيم، ويرى أنّ كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلّم بأنّه بليغ كالحقيقة[4].

ولا بدّ أن نشير أيضا أنّ البلاغة ليست هي الفصاحة وإن تقاربا وائتلفا فهما مختلفان، فأمّا الفصاحة فهي تمام آلة البيان ، أي هي إظهار الكلام وإخراجه للإبانة على المعنى ممّا صحّ من اللغة عادة واستعمالا دون الخطأ على من فطر عليها وجبل على الطبع والسليقة. فهي مقصورة على اللفظ؛ لأنّ الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى[5]. أي من خلال اللفظ والمعنى جميعا.

والخلاصة أنّ البلاغة **"هي تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصحيحة لها أثر خلاب على رقعة النفس؛ ليتحقّق بها فَهْمُ القصد، والاقتناع بالغرض".**

ويدلّك ذلك أن البلاغة إلى جانب متعتها وارتباطها بالذوق في إثارة المعنى، فهي تستهدفه للإفهام والإقناع في التوجيه للمقصود من الدلالات والمعاني.

ودرس المعنى وإن كان محور الدرس البلاغي فإنّه قد تشتّت في كثير من المعارف والعلوم كاللغة، والنحو، والنقد، والمنطق، والفقه، والأصول، والتفسير، وغيرها.

وقد تمّ درس المعنى عند البلاغيين العرب من خلال محورين مهمّين أَثَارَا الكثير من الاهتمام[6]:

- محور الدلالة اللغوية اللفظية
- محور المفاضلة بين اللفظ والمعنى .

وكانت خلاصة اهتمامات هؤلاء البلاغيين أنّه لا قيام لمعنى إلا بتراكيب مؤلّفة، وبذلك اهتمّوا بنظريات مهمّة كنظرية النظم، والفصل والوصل، والاهتمام بالمقامات الكلامية والمواقف التواصلية التي تنجز فيها مستويات الكلام واستعمالاتها الفردية.

2 - <u>أصالة الفكر البلاغي</u>:

لمّا صارت البلاغة علما ضيّقت على نفسها مجالها الإبداعي والحجاجي، وقيّدت بأغلال ومعايير صارمة جعلتها جسدا بلا روح درسا وتحليلا شأنها شأن اللغة لمّا استنبطت منها الأحكام بالاستقراء من كلام الله عزّ وجل وكلام العرب ضاقت بها الأرض بما رحبت، وراحت مقاييسها تلغي الكثير من اللغات المستعملة وسننها وبلاغتها وفصاحتها لولا فضل القرآن العظيم الذي نزل على سبعة أحرف وتواترت بها القراءات الصحيحة.

إذا قلنا الفكر البلاغي والتفكير البلاغي فهما شيئان متمايزان، إذ الفكر الفكر البلاغي هو جملة المقاييس والقواعد المستنبطة بالاستقراء من كلام الله وكلام العرب. أمَّا التفكير فهو الأصول أو الأسس التي بني عليها هذا الفكر، ولمّا اكتملت نظرياته ومسائله على الحدّ المعلوم التفت العلماء إلى الصنعة، فصارت البلاغة أحد العلوم العربية التي يتمّ بها كمال البحث في علوم الدين والشريعة.

إنّ ابتكار هذه الصناعة أثمر بوضع أسس فكرية كفل لها الاستمرارية والتطوّر، وهي ترجع بالضرورة إلى القيمة الفكرية التي يبتدعها الإنسان، وقد جعلت معاييرها مصروفة من أجل إنتاج النصوص، وقد سار الكثير العلماء في هذا المجال أمدا طويلا، والحقّ أنّهم توسّعوا في الدرس البلاغي، وقدّموا عرضا مستفيضا بفضل عقولهم الخلاّقة، حتّى قيل في علمهم : "العلم الذي نضج ولم يحترق" بغض النظر عن علم النحو الذي وصف بأنّه نضج واحترق، ومن خلال درس اللغة العربية درسا متميّزا بفضل نظم القرآن وإعجازه البديع الذي أوقف البلغاء والفصحاء حيارى مدهوشين، هذا النمط اللغوي والأداء الأسلوبي الخالد هو الذي يضمن بقاء البلاغة وحياتها، "فقذ استفرغت جماعة من اللغويين والنحاة والأصوليين، والبلاغيين ، والمتكلّمين جهودها في سبيل اجتراح مسالك وقنوات تمكنها من فهم خصوصيات الأسلوب القرآني ، وإدراك ضوابط إعجازه البياني"[7]، ومنهم سيبويه، والفرّاء، والجاحظ، والخطّابي، والرمّاني، والباقلاّني والزمخشري ، وغيرهم. وارتبطت البلاغة في البدء بالأسلوب القرآني الذي سارع العلماء للبحث فيه؛ لفهم أسرار إعجازه التي ظهرت عند الناس جميعا في "مزايا النظم وخصائص صادفوها في سياق اللفظ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري الألفاظ ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه إعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة وعشرا عشرا، وآية آية فلم يجدوا في الجميع

كلمة ينبوها مكانها ، ولفظة يُنكر شأنها ، أو يُرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتّساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حكَّ بيافوخه السماء- موضع طمع حتّى خرست الألسن وخلدت القُروم فلم تملك أنْ تصول"[8]. ولذلك صُرفت طاقة العلماء للبحث في بيانه وإعجازه، وهو السبب الذي عرف به استقراء كلام العرب ، وتتبّع أشعارهم والنظر فيها؛ لمعرفة غريبه، وتفسيره، وللردّ على الجاحدين الملحدين بالحجّة والبرهان.

ومع ذلك فقد نال الدرس البلاغي حظّه في درس النصوص الشعرية التي عبّرت بكلّ وضوح عن أذواق العرب واهتماماتهم التعبيرية والبلاغية الأكثر شيوعا، وعليه ظلّت بلاغة شعرية ذوقية في الأغلب؛ لغلبة جنس الشعر عليها. وهي إلى اليوم لم تستطع أن تتجاوز تلك السلطة الأدبية لتتلاءم مع روح عصرها. فقد استحكمت ملكة الشعر في الوعي الجمعي العربي، وظلّ يوجّه التفكير البلاغي القديم، على الرغم من أنّ حديث البلاغيين القدامى لم يغفل عن أنماط تعبيرية أخرى لها حضورها في الثقافة العربية كالخطابة، والترسل، والمقامة، والنادرة، والخرافة، فقد شكلّ ديوان العرب النموذج أو المعيار الجمالي الذي بلور أغلب ملامح جهاز البلاغة العربية آنذاك[9]. ومع ذلك كان الأثر الديني واضحا في الدرس البلاغي من خلال درس الإعجاز وضروبه. ولعلّ الدور الذي أولاه فيه علماء الكلام كان كبيرا ومهمّا من خلال البراعة الفكرية، والقدرة الحجاجية في تحليلاتهم الذهنية[10].

وبذلك تحوّلت بلاغة الشعر إلى سلطة رمزية يترافع عليها علماء اللغة والبلاغة للدفاع عن الحكمة العربية وإثبات خصائصها التعبيرية والجمالية، ولبيان القدرة الإعجازية في القرآن الكريم[11].

ومعرفة البلاغة لا تكون إلا بمعرفة العربية ومبادئها ومواقع كلامها، وأسرارها قديما وحديثا، ولا نحافظ عليها بالاستعمال، وجعلها منهجا في تحليل الخطاب، حفاظا على تراثنا وأصالتنا ودفعا لتطويره بدلا من الإقبال على المناهج الغربية بكلّ جذورها الثقافية والحضارية، فتفاعلنا معها، وتناولنا من أبواب بلاغتنا إلاّ المصطلحات المقابلة لتلك المعرفة كالاستعارة، والتشبيه، والمجاز، والتجنيس، والتكرار، والترصيع، والتصدير، والتضمين، والمعاني النحوية وغيرها، وربما أفردنا لها بحوثا مستقلّة.

3 - الدرس البلاغي بين سلطة المعيار وحرية المتكلّم:

تعقّدت مسالك البلاغة لمّا صارت علما معياريا مصروفا إلى التعليمية الصارمة في التعامل مع النصوص، وهو ما يجعل المتكلم المبدع خاصة حتى وطأة القيود المعيارية التي تحدّ من مجاله الإبداعي والتصوري، وتُقلّص من حظوظ تشكيلاته وتخيّلاته البديعة، وتجعل مجاله التعبيري بعدها ضربا من الاتّباع والتقليد النمطي الخالي من المتعة والإقناع. وما دامت البلاغة منهجا يمس الكلام، فلا بدّ على كلّ خطاب أن يتخلّص من الإرغامات أو الخضوع لأي سلطة، "وتبقى الحريّة الوحيدة للتخلّص من السلطة هي التحدّث خارج السلطة"[12]، وتصحب هذه الحرية حرية التأويل في فهم المقصود؛ لأنّ فضيلة الكلام تكمن في حريته من كل وثاق يشدّ حراك الفكر والإبداع، ويعقل تنشيد المفكّرة والخيال.

فاللمحة الدالة كما قال خلف الأحمر أو الكلمة التي تكشف عن البقية على رأي الخليل[13] دلالة على أنّ البلاغة إيجاز في اللفظ واقتصاد فيه، واتّساع في المعنى واستدلال عليه. وهي اختيارات حرّة يصطنعها المبدع أو المتكّلم ويرتبها في تركيب معيّن ويولّفها في أسلوب خاص حتّى يقصد بها معنى يحسن السكوت عليه. لذلك يتّصف الكلام بالتفرّد والحريّة في الأداءات اللغوية، وبما أنّ اللغة سلطة اجتماعية فهي تلزم المتكلّم بالخضوع إلى قوانينها، فإنّ خطاب هذه "السلطة مبني على السكوت"[14] والانغلاق، وهو حبس للحرية وتقييد للخيال والإبداع.

ولمّا تحوّلت البلاغة من صفة خطابية أو للكلام إلى علم أقام صنعته على معايير تضبط لفهم النصوص وإنتاجها ، فإنّ مجموع هذه القواعد القائمة على أساس منطقي كوّنت عرش البلاغة وسلطانها، ومع ذلك فهي ذات وظيفة محدّدة تتمثل في إنتاج النصوص حسب قواعدها. وبذلك غلبت المعيارية على البلاغة العربية القديمة في إنتاج النص لغلبة الجانب التعليمي عليها، وراحت تشرّح النصوص كتشريح الجسد بلا روح، فكانت بلاغة وصفية أو تاريخية. وتأويلية في بعض الأحيان؛ لأنّها تجسد الوضعية الشعرية، والذوقية، والاختيارات التي يتبنّاها من بين مجموع الوسائل التي تمليها الظروف.

أمّا اليوم فهي تسعى إلى تحليل النصوص[15] لفهمها، وتفسيرها وتقييمها من منطلق الأثر الذي تحدثه في المتلقي. ولذلك فهي تقتضي الوسائل التعبيرية – الشعر والنثر والمسرح والحكاية، وكل الإبداعات والمواقف التي تعبّر عن الحاجة الاجتماعية- التي تصوغها مخيلة الإنسان وتبدعها[16]. وأنّ الإنسان لا يفكّر إلاّ وهو حرّ ، ولا يبدع إذا كان في الأغلال والقيود التي تجبره على الاتّباع والبعد عن الابتداع. فقد وجب علينا ملازمة الإبداع كما تقتضيه هذه اللغة و مسايرة منوالها وما تتضمّنه من فكر، وإيديولوجيات ومراجع مطبوعة بطابع عصرها، ومرتبطة أيضا بماضيها ومراجعها المخزونة في الذاكرة الفردية والجماعية.

4- اللغة والتواصل البلاغي

البلاغة تفاعل الذات مع اللغة، هذا التفاعل يؤثر في معالم التخاطب والتواصل، "فهي متواجدة في الخطاب اليومي للإنسان عبر النكتة، والشتيمة، والكتابة"[17]، والكلام، واللعبة، والرياضة، والسينما، والمسرح، والخبر، والرسم، وغيرها. ولا بدّ أن تكون اللغة الأداة الأقرب إلى تفعيل النشاط التواصلي بين المتحاورين، فإذا كانت بعيدة المنال بطُل الغرض، وغابت الحجّة، وفُقِد الأثر، فقد كانت العرب منذ القديم تعرف مواقع كلامها، وتحسن الاستماع والتبليغ.

وكثيرا ما يجد المتلقي في هذا القرن إشكالات تواصلية مع طبيعة بعض المصطلحات البلاغية خاصة في القضايا المتشابكة والمتداخلة كالحديث عن التشبيه والاستعارة والمجاز والمشترك اللفظي، أو الكناية والتورية ، أو الرمز والتعمية والإيهام، وغيرها، إنّ إنتاج المعرفة جُعل لعامل تحصيلي تعليمي[18]، ولذلك بسطت البلاغة سلطتها قرونا طويلة ، وأغرقت في التصنيف ، والتفريع، واستنباط المصطلحات التي تتداخل فيما بينها والتي قد تسير في كثير من الأحيان في اتجاه واحد.وقد يعود ذلك إلى عدم القدرة

على فهم أبوابها، وتفريعاتها ومصطلحاتها لدى الكثير من المتعلمين والمبدعين؛ لبعدها عن أفق التقبّل عنده، فتأتي غريبة بعيدة المنال عند التحليل.

أمّا اليوم فقد أصبحت الكثير من المعايير البلاغية صعبة المأخذ؛ لأنّها بقيت مرتبطة بالنصوص القديمة المتكررة في المصنفات، في وقت كان لزاما أن نتوافق مع اللغة العصرية المشحونة بالطاقات الفلسفية والانفعالية، والمتأثرة بالظروف النفسية والسياسية والاجتماعية، هذا البعد الفكري الذي ينهل من ثقافات ومناهج وافدة لا بدّ أن يتلاءم مع اللغة الحديثة، لأنّ أداءاتها وأساليبها تجعل بلاغتها ذات طابع جديد مخصوص بها يقوم على قوّة الحجة ،وبعد الدلالة، وهي تداوليا تجبرنا على التخمينات والافتراضات المنطقية المحتملة التي تنتهي عند المهيمن في نتجة التأويل والتحليل النهائي للخطاب .

إنّ دور المتكلّم أو المبدع هو تبليغ المعنى لمتحاوريه، وقد تكون بعض العبارات التي يوجهها بعيدة المقصد عسيرة الفهم، وهنا يقع المتلقي في حيرة الفهم بين الحقيقة والمجاز: المصرّح به أو المسكوت عنه.

فإن سكت عن التصريح بالحقيقة فلم يعرض حجب مقصده؟ ولم لا يصرّح ولا يتكلّم فيه ؟ إنّه الاضطرار والاختيار الذي يرومه المتكلّم في **المعنى المحذوف** لبلوغ أهداف محدّدة، وبذلك تصبح العلاقة التواصلية بين المتكلم والمتلقي مبنية على "بلورة علاقة حوارية تفاعلية يحدّدها السياق .. يجمعها التواصل بين أفق التوقّع والانتظار"[19] المفترض من الكلام ، ومن المعاني المطروحة بفضل الفهم والتأويل بالاستعانة بالسياق وظروفه وملامح الحوار ذاته.

وللغة دور في التواصل بين المتحاورين وإقناعهم بالغرض بالتأثير فيهم إيجابا ، بحيث لا تضيق تصوّراهم عن الاستجابة للمقصود، إذ لا بدّ أن يكونوا من إيديولوجية لغوية موحّدة ومتقاربة، يحدث بفضلها التكامل والتفاعل، فهل يتذوّق الشاب العربي المعاصر مثلا هذه الصورة التي عبّر عنها امرؤ القيس في تشكيل حصانه الشعري (الطويل)؟

لَهُ أَيْطَلاَ ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

قد يعجز حتما إن لم يكن خبيرا بلغة العرب القدامى، وإن رجع إلى المعجمات فسيصطدم بالمعنى ، وهذا إشكال آخر، لأنّ الصورة المشكّلة هي أسلوب وليست معان مجرّدة لكلمات معزولة عن السياق. وإذا كان من الذين عرفوا ثقافة الشاعر وعصره، وهي ظروف تختلف من حيث الوصف، والبيئة، والمخيال، ولو عرف قدرا منه غاب عنه الكثير من الأشياء.

هذا صحيح فقد غاب ذلك حتّى على الدارسين أنفسهم، فقالوا في وصف هذا الحصان بأنّه قائم على التصوير الذي عماده التشبيه، وقالوا أنّ امرأ القيس لم يجد في تشبيه خاصرتي حصانه إلاّ الغزال، ولم يجد في مثل قائمتيه إلاّ النعامة، وفي جريه الخفيف والشديد

إلاّ الذئب والثعلب[20].

فإذا راجع الدارس نظره لكان هذا الوصف أليق بالمراجعة؛ لأنّ هذا التصوير خال من التشبيه وأركانه وإن كان قريبا منه، فالصورة المشكّلة منتزعة من متعدّد، اختزلها الشاعر في تشكيل جديد أعاد تحويله وتركيبه من خلال دقّة ملاحظته للعوالم التي حوله، فرسم صورة غريبة أوجدها على غير مثال سابق، ولكنّ تحقيقها في الواقع ضرب من المحال، وإنّما دبّر أمره هذا للاستدلال على تفرّد حصانه المتميّز الذي تجتمع فيه صفات غير مسبوقة وغير موجودة في غيره، هذه الصفات هي: الرشاقة، والنشاط والخفّة، والشدّة. هذه هي فلسفة الشاعر في تعبيره عن مراده، وما انتهينا إليه نحن من التحليل قد يكون غير مقصود ، ولكنّه ممكن ومحتمل الوقوع، وهي نتاج فكرنا المعاصر، ولغة الشاعر وإن كانت بعيدة عن عهدنا فإنّها تفهم بالشرح والمعاهدة والاستعمال، فإذا انقطعنا عنها كانت من الأحافير اللغوية.

ومن ثمّ فالمواقف التواصلية التي نبتغيها ترتبط بالوعي والمعرفة والإدراك ، فهي لا تقتصر على البعد الجمالي فحسب، بل تتعداه إلى وظائف تقوم على الفكر والتدبير في توجيه الكلام وتوصيله تأثيرا، وإفهاما، وتأويلا، وإقناعا.

وحاصل القول إنّ الدرس البلاغي الحديث في كثير من الأحيان لا يوازي التجربة الإبداعية المعاصرة، لإغراقه في المعايير القديمة وعدم تكفّله بالتطوّر اللغوي، وظروف الإنسان المعاصر، وفكره وثقافته، وأحاسيسه، ووعيه، الذي يختلف عمّا تركّز عليه البلاغة في كثير من أبوابها ومقاييسها. وبذلك جعلت البلاغة منهجا لفهم الخطاب؛ لأنّها تمسّ الكلام الذي يتميّز بالحريّة وبُعْدِه عن التقييد، الأمر الذي يدخله في دائرة الإبداع والتأثير الإيجابي الذي يقوم على الذوق والغرض الحجاجي الإقناعي، وهو حجّة النص على المتلقي من خلال توجيه العقل لتحقيق غرض ما بالأدلّة المنطقية.

أمّا إذا أسرف في تعلّقه بالأنماط اللغوية وأنظمتها المعيارية فسيدخله حتما في الرتابة والنمطية ، والنتيجة محاصرة الذوق الرفيع في الإبداع والبعد عن الإفهام والإقناع.

1- **مراجع المتلقي:**

إنّ العامل المرجعي، أو الذاكرة التي يمتلكها المتلقي لها حظّ وافر في عملية التواصل والفهم، فالمخزون الفكري للظروف التاريخية والنفسية والاجتماعية تجعله يلامس الحقيقة من بعيد أو من قريب، بحيث يتفاعل مع الضمير الجماعي أو الفردي ليبني من التجارب الأصيلة فكرا مبتكرا له قدره وطاقته النفسية والفلسفية، ليجمع بين القديم والحديث، هذا المصرف المرجعي لا بدّ أنّ يكون معبّأ الرصيد وإلاّ انقطع العطاء التواصلي بينهما.

ربما يكون تعيين الفهم مصحوبا بالمعرفة، إذ الجهل بالحقيقة يغشي المقصود فيبقيه بعيد الإدراك. وفي أحايين أخرى قد يقع في الوهم، وهي المغالطة التي قد يقصدها المتكلّم.

فالتضمين أو ما جاء في باب السرقات في الدرس البلاغي والنقدي القديم، أو ما يعرف بالتناص اليوم، مصطلح في حقيقته يمثّل امتصاصا لحقائق أخرى مماثلة تستلّ منها بعض جزئياتها ثمّ تنسلخ منها على مثال جديد، وهو"إثبات ونفي وتركيب"[(21)]، إثبات؛ لأنّه يمثّل جملة المحاورات والمبادلات التي تحقّ رباط

تواصليا بين الحاضر والماضي، وهذا لا ينسجم إلاّ بقدرة تفاعلية تمرّ عبر مراجع معيّنة تجتمع في خطاب ما . ونفي ؛ لأنّ أحدها يبطل مفعول الآخر، لما تلتقي وتتصارع، وهذا التلاقي والتفاعل هوتدمير وهدم في الوقت نفسه؛ لأنّ المعنى الجديد يعبّر عن تجربة ليست هي نفسها التي تجلّت في المراجع السابقة. وتركيب؛ لأنّها يِلف بين التجارب الغائبة والحاضرة ويلوّح بالمعاني، ولكنّها يثبت في الوق نفسه فائدة التركيب الجديد. ولذلك فالتناص قراءة جديدة، أو إبداع ثان ليس له المعنى الأوّل نفسه فهو شدّة ائتلاف في شدّة اختلاف.

وانظر مثلا في مخزون الذاكرة التي ينهل منها المتكلّم بغرض التورية في الكلام؛ أي: قائمة على الإيهام والمجاز، التي قد يجد فيها المتلقي بعيدا عن فهم المقصود؛ لأنّه مستهدف

على التضليل والإيهام لحاجة ما يريدها المتكلّم، فالتواصل بينهما حادث ولكنّ الوصول إلى المعنى الحقيق غير مُتاح للمتلقي.

ونضرب لذلك مثلا لحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا سئل في هجرته إلى المدينة مع صاحبه أبي بكر الصديق فقل له: ممن أنت؟ قال من ماء. أي: أصله من ماء "فلْينظُر الإنسانُ ممّا خُلِق ، خلق من ماءٍ دافقٍ يَخْرُجُ مِنْ بيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِب"[22]، وهو معنى خارج عن مرجعية الجاهليين، لأنّ هذا المعنى الجديد استجدّ في الفكر الإسلامي الذي بعث به الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا غرابة في ذلك ، فهو م يشعْ في نفوس النّاس بعد، هذا الإيهام – وهو صدق وليس كذبا - مقصود؛ لأنّه جاء اضطرارا حتّى ينجو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه من كيد الكفار؛ لأنّه لو عرّى المعنى وجاء به صريحا لَكُشف أمره، فقد وقع المعنى في ذهن المتلقي على أن يكون من أحد القبائل العربية فقام المعنى عنده على الظنّ؛ لأنّه بُني على مواضعات وأعراف اجتماعية متداولة وشائعة، وثابتة في الضمير الجماعي عند الجاهليين. في حين وقع عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الاختيار دفعا للضرر، ومن ثمّ سكت عن الحقيقة، ومن ثمّ يثبت عندنا أنّ المعنيين معا مستقرّان معلومان في فؤاده صلّى الله عليه وسلّم، "لذا حقّ التصديق بهذا التجاوز أن يصحّ فيه معنى المورّى عنه على هذه الصورة ما دام أنّ الضرورة أو الحاجة في جلب المصلحة ودفع الضرر هي التي توجب توظيفا حقيقا أو مجازيا للكلمات"[23].

إنّ الجمود الذي توصف به البلاغة، في الحقيقة، هو ذلك الشرخ التواصلي العرفاني بين الأجيال العربية، وعدم القدر على مواكبة التطوّر اللغوي، والاحتفاظ بالذاكرة والمخزون القومي والجماعي. فالعصبية للقديم، أو الانفتاح المطلق للمعاصرة قَطَع الحبل بين الجيلين فانقطع الوصال بينهما وقد يجعل التاريخ معزولا مخبوءا كالأحافير تعرض في المتاحف، وتجعل الجديد مجهولا بلا أصل ولا هويّة.

لذا فالمتغيرات والتطور يفرض معرفة صنائع الأجيال الماضية ومعارفهم وفلسفاتهم، ثمّ الدخول برفق في المعاصرة بالربط بين القديم والحديث وفق مبادئ الحياة الراهنة في مستوى تفكيرها، وفلسفتها، وحضارتها التي تجعل ذاكرة الكلام حقلا واسعا تشاركه في الصورة السمعية، والمرئية، والمقروءة

والخطابية، وقد تشابكت الثقافات، وتقارب التواصل اللغوي على اختلاف الجماعات اللغوية ، واتلف المختلف وأصبح تلقّي الكلام جبلا من الرواسب الإنسانية التي دفعت بالحدود اللغوية إلى الزوال وأنّ قضية التأثير والتأثّر لم تعد مشكلة لغوية، بل هل وسيلة حضارية صرفة لها أثرها في التقبّل المعرفي والخطابي.

ثانيا- البلاغة ومناهج تحليل الخطاب:

ألا يمكن للبلاغة أن تضع مناهج خاصة بها تستثمرها في تحليل الخطاب؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال صعب جدا، لا لأنّه غير محتمل الوقوع وغير ممكن التحقّق، بل لصعوبة تحقّق شروطه، ولعلّ من أبرزها تطوير الدرس البلاغي من خلال ضمن مشروع قومي واسع المدى يشمل كلّ الشعوب العربية في مجامعها اللغوية، لتتوحّد الجهود، والأفكار، والمنطلقات، والمصطلحات، والمناهج، وآلياتها وإجراءاتها. وهذا صعب المنال، بعيد التحقّق، بسبب الخلافات والسياسات وتوجّهاتها، والعصبية الزائدة.

إنّ الإشكال الذي وقعت في البلاغة هو هذا العقل الذي بقي قابعا في زاوية ينعق بما يسمع، ولم يخطو خطوة جديدة يحرّر بها فكره، ويتخلّص من قيود التبعية والمحاكاة. فالرقيّ الفكري لا يحدث إلاّ بالتفاعل مع الآخر؛ من أجل فهم طرائق التفكير الإنساني في القرون التي خلت أوّلا، ثمّ تقديم حصيلته الفكرية إلى الأجيال القادمة ثانيا؛ لأنّ الظروف تختلف، واللغة في تطوّر مستمرّ، فلكلّ عصر بلاغته وفصاحته، ومنطقه وفهمه، وإلاّ فما الدليل على تطوّر الفقه، والتفسير، والبحث في الإعجاز القرآن، واستقبال المعارف والعلوم المستحدثة؟

صحيح أن البلاغة العربية لم تفلح بالخروج من بعض معاييرها القديمة التي تجاوزتها بسبب التطوّر اللغوي والذوقي والجمالي والفنّي لتنشأ لنفسها معايير جديدة، وتستحدث مناهج تقحمها في تحليل الخطابات، إذ المشتغلين بها آثروا النزوع النزعة القديمة : النزعة التعليمية التي ركّزت على الشواهد الشعرية القديمة في تلقين أبوابها ومداخلها ضمن معايير قلّما ترتبط بسياقاتها؛ لأنّ المعاني لا تحيا إلاّ في سياقاتها التي تعطيها القيمة الجديدة. ولمّا طال العهد وظهرت مؤثرات العلوم الأجنبية ومناهجها تلبّست بالثقافة العربية وتأثرت بها وحاولت تطبيق مناهجها وآلياتها في مختلف الخطابات، هذا المسلك العرفاني الجديد أسهم في وصف البلاغة العربية بعجزها وقصورها شأنها شأن البلاغة الغربية.

لمّا تراخى هذا العقل على الإبداع والخلق في استحداث ما يليق بالبلاغة من معايير جديدة، ترك الفضل للمناهج المستحدثة للقيام بهذا الشرف فنهلت من معارفها، ومداخلها، وأبوابها في تحليل الخطاب، وجعلت نفسها الوريث الشرعي لها، وبخاصة منها الأسلوبيات، بل وتكالبت عليها الكثير من المناهج الأخرى الليسانية، والسيميائية، والتداولية، وغيرها ولكنّها لم تفلح في سحقها، بل ظلّت قائمة بلا سلطان على الرغم من ضعفها. وما بقي منها إلاّ الهيكل الذي وضعت أحافيره في متاحف لا يُقْبِل على ريادتها إلاّ جيل

قليل من المبدعين والقارئين العارفين بأحوال اللغة. حتّى انتهى بنا القول إلى "**أنَّ البلاغة أصبحت قاصرة**".

وفي الحقيقة أنّ الموضوعية العلمية تلزمنا بإنصاف هذه البلاغة وإن انشغل أهْلُها بمناهج غيرهم أنّها قدّمت الكثير، حتّى الدارسين اليوم لم يستطيعوا التخلّص من الكثير من دروسها وأبوابها حتّى في المناهج اللسانية، والأسلوبية، والتداولية، بل ينهلون منها وينسبونها إلى غيرها ظلما وجورا.

إنّ اندفاع الدارسين العرب وتحمّسهم الزائد للثقافة الغربية هو الذي دفعهم بإصدار هذه الأحكام، ثمّ إنّهم إذا تحدّثوا عن البلاغة العربية انطلقوا دوما من أصول البلاغة الغربية، وأفرطوا في ذكرها وغلّوا أصول الحدثة إلى تلك القرون الخالية، وهم لم يفعلوا واجبهم مع ميراثهم الثقيل.

ومع ذلك فإنّ التطوّر الذي عرفته الدراسات الحديثة المتعلّقة بنظريات النّص كاللسانيات، والأسلوبيات، ولسانيات النّص، وتحليل الخطاب، والتداولية، وغيرها من المعارف التي أثبتت استحقاقها في معالجة الأثر البلاغي للنصوص والخطابات المرئية،والسمعية البصرية، قد يجعلنا نقتحم هذا المجال لضبط أصول البلاغة، وتطوير معاييرها وفق منهج يحافظ على خصوصيتها وأصالتها، ويجدّد منطقها الفكري.

إنّ ما يجعل البلاغة العربية في خطر حقيقي وأشدّ تحجرا وأكثر جمودا، الاستمرار في القدح والعصبية ،والاتّفاع وعدم الارتفاع عن التقليد، إذ لابدّ من تحرير العقل العربي وذلك بربط بأصالته وبعصره ليكون أكثر استعدادا لتغيير مقوّمات لغته التي ما تزال في تحوّل مستمر، وتطوّر دائم، وفي تجدّد متسارع، ومن ثمّ وجب خلق مقاييس جديدة تتماشى وذوق الإنسان المعاصر، ووعيه ومنطلقاته الفكرية، واستعمالاته اللغوية، وهكذا يتواصل هذا الصنيع من جيل إلى جيل، لتكون البلاغة نتاج أجيال الذي يعبّر عن حياة كلّ جيل وخصائصه ومقوّماته.

إنّنا لا نريد الانفصال عن ماضينا، ولكنّنا نريد ربطه بحاضرنا، فكان لزاما أن نخرج البلاغة من الشعر والخطابة إلى عالمنا الخطابي الرحيب إلى الخطاب العامي، والإعلامي، والإشهاري، والتداولي، والتمثيلي، والرسم، والتشكيل، والفنون الجديدة المستحدثة عند العرب كالسرد والمسرح، والتصوير، وغيرها.كلّها بحاجة إلى ضوابط جديدة تحقّق لها حلمها لتخرج من التعليمية وإنتاج النصوص ومعاييرها، إلى خلق المناهج للدرس والتحليل.

1 – المآخذ على البلاغة:

علقت بالبلاغة صفات قدحية روّج لها الكثير من الدارسين العرب بسبب حماسهم الزائد للحداثة الغربية[24]، بعدما راحت حقولا معرفية جديدة تنافسها للاستلاء على ميراثها، وهو السبب الذي جعلهم يعتقدون أنها انهارت وقصُرت، ولو أمعنا النظر فإنّ الكثير من القدح قد تلاقيه بعض المناهج المستحدثة نفسها كالسيميائية مثلا بأيّ معايير تقيم دروسها وتحليلاتها؟ فالدرس فيها ليس ثابتا والمعايير مضطربة وغير مستقرّة. وانظر إلى الأسلوبيات التي استغرقت في الجفاف العلمي المطلق وابتعدت عن المرونة

والليونة الأدبية، وأصبحت منهلا خصيبا لملتقى العلوم – الصوتيات وعلم الصرف، والنحو، والدلالة- وأغرقت في الرتابة والوصف والإحصاء وابتعدت عن قيمة التأويل، وأصبح المنهج غير متاح إلاّ لمن أخذ منه بحظ وافر. وترى كلّ حزب بمنهجهم فرحون، يزكّون أنفسوهم ، ويدّعون أنهم الأصوب والأليق في الدرس والتحليل.

ومن بين هذه المآخذ التي عرضت على البلاغة-ولعلّ بعضها مقنع إلى حدّ ما-نذكر الآتي:

- أنها ارتكزت في تصورها على البعد الجمالي الشعري، وبقيت بذلك بمنأى على احتواء الأجناس الأدبية النثرية وغير الأدبية[25]، في المقاربات التحليلية المستحدثة. وهذا ما يجعلها بلاغة للشعر ترتبط بالذوق والجمال، ولو ارتبطت أكثر بالخطابة وغيرها من الأجناس غير الأدبية لكانت أولى بالإقناع، ومع ذلك حافظ الشعر على شيء من هذه الخصائص لارتباطه بالقيم التي ينشدها ويذوذ عنها، والدفاع عن أصالة القبيلة وشرفها ومكانتها. ولكن هذا لا يقلل من قدر البلاغة، لأن التهمة موجهة لأبناء هذا العصر الذي استحدثوا هذه الفنون أو تماشوا معها ولم يضعوا لها معاييرها تماشيا مع التطور اللغوي والزمني والثقافي والعرفاني.

-التضخم وكثرة التفريعات بسب كثرة التصنيف والتلقيب، واختلاف الأنواع والكيفيات، وكثرة الملخصات والشروح.

- تعليم بلاغة الانفعال والعاطفة في المؤسسات التعليمية بعيدا عن التوجه العقلي والمنطقي (ولكنه غير مناسب في بعض مراحله للمؤهلات العلمية للمتعلمين ومهاراتهم الفكرية واللغوية).

- تجديد البلاغة بقيت طموحات غامضة الأهداف والموضوعات، في حين كان لابدّ من معالجة المسائل البلاغية بعقل ابتكاري إبداعي لا تقليدي.

- والأليق بالقول تطوير الفكر البلاغي لا تجديد البلاغة؛ لأنّ التجديد يوحي بتقويض أغلب أركانها، أمّا التطوير ، فتحسين ما يجب تحسينه وإبقاء الحسن أو الجيّد على حاله حتّى يحين دوره.

- يبقى تطوير البلاغة مشروعا بعيد التحقّق والإنجاز، وكذلك تهديد البلاغة وتهديم برجها العالي، لأنّه المشاريع لا بدّ أن تخرج من مجالها ومحاولاتها الفردية إلى الصنعة الجماعية ليكون مشروع مجتمع جاد تشتغل به كافة المجامع اللغوية العربية في اجتماعات ومشاركات دورية بعيدا عن التفرق والعصبية والاختلاف.

2-التطوير النظري والمعياري للدرس البلاغي:

في رأيي المصطلح الأدقّ والأليق بالاستعمال – كما أسلفت الذكر- هو التطوير بدلا من كلمة التجديد كما يقترح الكثير من الدارسين، لأنّه التطوير يكون بعد الموجدة، أي وجود معارف أو معايير سابقة، نروم تحسينها وتطويرها وفق متطلبات العصر ومستجدّاته وظروفه، أي: ما تتطلّبه تطوّرات اللغة الجديدة المتواضع على تحصيلها.

أمّا التجديد فربما يوحي بشيء من إقصاء للأصيل، لغلبة الظنّ عندي أنّ التفعيل من الكثرة، فلا بدّ أن يمس في شغله قواعد كثيرة، والتطوير قد يمسّ بعض القواعد النظرية، وطرائق التحليل. وبالتالي فالتطوير لما يلزم تطويره وتحسينه فقط، والتجديد يكون أكثر شمولا ليشمل التجربة وفقا لحدودها المعرفية واللغوية، وهو صعب المنال.

ننطلق في محاولة التطوير من خلال الرؤية الموضوعية في موضع واحد فقط لغاية منهجية؛ لأنّ المقام لا يسمح، فهي قد تستغرق مصنفات وفق لعقول وجهود يقدّمها العلماءن فقد اخترت موضوعا عل سبيل التمثيل وهو الاستعارة .

2-1- درس الاستعارة (التشكيل والتأويل):

الاستعارة باب شريف طريف يمثل أغلب الكلام؛ لأنّها تقوم على الاختيار والتأليف يجتاز صانعها كل الحدود ليتكلّم من غير قيود أو مراقبة وفق التواضعات التي تضمن التواصل البلاغي والإبلاغي. ونحن لا ندبّر لنقد، أو لتعريتها من أصلها، ولا نريد قدحا أو دعاية لدخيل، وإنّما نريد تثبيت رؤية أكثر شمولا ودقّة ، وقد نستأنس بالتفاعل مع ما ينفعنا من مناهج مفيدة للهوية العربية الإسلامية.

2-2- إشكال الاستعارة:

إنّ الإشكال الذي وقعت فيه الاستعارة كغيرها من الأبواب الأخرى وقوعها في المعيارية القاتلة في دراسة النصوص، فهي لم تتعدّ الرؤية الواسعة في تحليل الخطاب، وبقيت كالجثة الهامدة بلا روح في المشرحة، وقد استلّت منها الحياة، أي: البعد الجمالي والذوقي، ومن هنا نبينها على النحو الآتي:

أ – المفهوم:" في البلاغة العربية القديمة :

الاستعارة في الدرس البلاغي القديم، وهي إلى اليوم تلقّن في المؤسسات التعليمية على أنّها **" تشبيه حذف أحد طرفيه"**، قال عبد القاهر الجرجاني:" الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره"[(26)]، وهذا هو الفارق بينها وبين التشبيه الذي يجب أن يحافظ على ركنيه.

ب- أركانها، لها ثلاثة أركان:

- المستعار منه، وهو المشبه به
- المستعار له، وهو المشبه
- المستعار، وهو اللفظ المنقول.

ويسمى الاول والثاني طرفي الاستعارة، ولا بدّ أن يحذف أحدهما، ويحذف معه المعنى المشترك لتصح الاستعارة وتتميز من التشبيه[(27)].

وعلى أساسها قسمت الاستعارة قسمين: التصريحية والمكنية.فالتصريحية ما صرّح فيها بلفظ المشبه به، أو ما حذف فيها المشبه وصرّح به من خلال المشبه به، والمكنية هي التي حذف فيها المشبه به وأشير إليه بأحد لوازمه.

رأي وموقف: :

إنّ فكرة قيام الاستعارة على التشبيه فكرة أصيلة في مرحلة قد نصفها بالمرحلة التعليمية، إلاّ أنّها في مجال تحليل الخطاب قد تتحوّل إلى أسلوب دلالي أكثر حريّة وإبداعا.

وتبقى في ميدان التحليل صعبة القبول في بعض الأحيان، وقد تكون غير منطقية، فهي ليست تشبيها دائما، وإن كان يظهر فيها شيء من تلك العلاقة؛ لأنّ الصورة التي يشكّلها المبدع أو المتكلّم عملية واعية لا تكون دائما قائمة على القياس، والتشبيه ضرب من القياس؛ لأنّه يجمع بين تجربتين متماثلتين، فلو أراد هذا المتكلّم التشبيه لوظّفه من دون تردّد، ولذلك فالاستعارة أسلوب من الأساليب التي تتشكّل بها دلالات الخطاب على نحو محدد عندما يجمع بين صور غير متعايشة من قبل فيؤلّف بينها. أمّا أن يريد الاستعارة ويَعْقِد التشبيه، ثمّ يحذف أحد طرفيه، فهذا أمر مركّب يُستثقل في عمليات التخييل، وهو من تصور البلاغيين والعلماء كما فعل النحاة في بعض مقاييسهم لتثبيت فكرتي الأصل والفرع في تصورهم النحوي.

فالتشكيل الاستعاري تركيب لصور غير متعايشة يتمّ التأليف بينها لتعيش لأوّل مرة على غير مثال ، وتكوّن عالَما حذف معناه، و وانتهى إليه الفهم من لفظه وتعبيره، وعملياته التحويلية والاستبدالية والنقلية.

فما الاستعارة؟

الاستعارة متغيّرة من المتغيرات الدلالية، لأنّها تحوُّلٌ يقوم في الذهن[28]، أي وجه من المعاني المتخيّلة في الذهن القائمة في النفس المعبّر عنها باللفظ. بتعبير آخر هي تشكيل عماده التخييل والإبداع يتأثَّر بفاعليات كثيرة[29]، ومنتهاها فهم المعنى والوصول إلى الغرض المقصود ما أمكن إدراكا ووعيا وتأويلا.

تتشكّل الاستعارة بطريقة واعية وحرّة، وتتجّدد بتجدّد الظروف والثقافات في تحويل المعاني."إذ لا بدّ لكلّ استعارة من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة"[30]، وهي بذلك تخرج بالمعنى إخراجا جديدا من أجل الإضافة، فيصبح لكلّ معنى معنى آخر أو ما يعرف "بمعنى المعنى". إذ لو لم تقدّم الاستعارة زيادة الفائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا"[31]. فهي وعي فكري وتدبير لغوي، وحقّ الذات في رؤاها للعوالم ، وحظّها في الإبداع ، وتعبير عن تحرّرها من القيود فهما وإدراكا، هذه الظاهرة اللغوية تحتمل ما تحتمله اللغة من القيم والوظائف والمعارف والعلوم، فهي "ذات طبيعة تصوّرية"؛ لأنّها عملية إدراكية كامنة في الذهن. ولذلك فالاستعارة فن لغوي تداولي [32]، وفعل تصوري ينتج تشكيلا دلاليا وانفعاليا وشعريا بغرض الفهم والتواصل، وتحقيق الفوائد. والمتغيرات التي تقع فيها هي في الأصل تحوّلات ذهنية.

وانظر إلى هذا التشكيل مثلا: **"عضّني الفقر"**، فأنت لا تلتفت إلى كونه تشبيها، أي تشبيهه بكلّ ذي ناب المألوف في العرض التعليمي، بل تلتفت إلى سياقه أوّلا؛ لأنّه هو الذي يحيلك إلى المرجع الذي تنمو فيه هذه الفكرة، وتحيا بفضله الاستعارة، فضلا عن التواضع الفردي والاجتماعي لاستعمال هذه الوسيلة الأسلوبية البلاغية، فالعضّ يوحي بالإطباق والمؤصد والمستغلق ، وتَبِعَاتُه الألم ، والفقر معلوم، فإذا عضّ الإنسانَ فقرٌ فَهِمْنا بالضرورة ومن دون تركيب عمليات تصوّرية أخرى المعاناة من معاناة الفقر، ثمّ إنّ الشعرية تنبثق في اللحظة التي أصبح فيها الفقر يعضّ، ولعلّ الإضافة التي تقدّمها الاستعارة هنا هي وصف المعاناة، وقوّة الحاجة، وشدّة العوز.

ولذلك فالاستعارة مرحلة من مراحل تشفير المعنى بإجراء اللغة على غير العادة، أو الحقيقة، والغاية هي أن يكون الكلام أبلغ وأقوى من الحقيقة، **والفرق** بين التشبيه والاستعارة هو أنّ التشبيه يحاكي بين طرفين للتشارك والاختلاف، فيشعر أنّ طرفا كغيره لا غيره نفسه، أمّا الاستعارة فتجعل الشيء غيره[33].

وبالتالي نقبل الرؤية الجديدة للاستعارة اليوم باعتبارها دالا يتضمّن مدلولين:

- المدلول الأوّل: وهو المدلول ذو الصورة المبتكرة، أي:التشكيل المتخيّل المتصوّر في الذهن الذي لم تجر به العادة.

- والمدلول الثاني، وهو المدلول الأصلي (الحقيقة)، وهو المقصود من الكلام،ولكنّه خفي حذف معناه وأعرض عن التصريح به، ولكنّه سكوت للإيحاء، يعبّر عنه بلغة غير مألوفة، وبنيته سطحية؛ لأنّ التعبير به على الحقيقة لا يحقّق الغرض الوافي بالدرجة التي تقولها الاستعارة.

ولنا في ذلك أيضا استعارة أخرى " **حرقني الجوع** " تعبير عن حتمية بيولوجية، ذلك أن المتلقي لا يجد صعوبة في فهم الدلالة، ولكن عليه أن يدرك ما قاله المتكلّم بوعي، إذ إنّ الإعلان عن شدّة الجوع كان وفق تجربة واقعة، ولكنّها غير حادثة، ولكنّ الممارسة الخطابية فرضت علينا فهم بعدها التداولي ، إذ إنّ الاحتراق تحوّل من فاعلية كيميائية إلى فاعلية نفسية، وهو الإحساس بالجوع. إنّ هذا العدول ليس مجرّد حلية وتزيين للكلام ، إنّما هو أيضا وسيلة عرفانية؛ لأنَّ أسلوب استدلالي استنتاجي يقود إلى معرفة ديناميات الواقع، فالاستعارة تنشأ في ثقافة معيّنة وتتشكّل وهي تتحرّك؛ لأنّها تقبل توليد الدلالة، فيجعلها أسلوبا للتوليد الدلالي.

وفي اعتقادنا أنَّ الرؤية البلاغية المعاصرة لا تعتبر الاستعارة تشبيها، ولكنها قد تتضمّن بُعدا تشبيهيا ، استنتاجا لا باعتباره أحد أركانه، ذلك أنّ الاستعارة لا تحيا إلاّ وهي متحرّرة من كلّ القيود، لأنّها:

- ممارسة واعية ومتمرّدة على قوانين المألوف ، وبالتالي فهي ليست معيارية.
- فلسفية ترتبط بفلسفة الحياة، وبظروفها تحيا وتتشكّل
- فهي "موضوع تفكير فلسفي ولغوي وجمالي ونفسي"

- تتميّز بخاصيتها التفاعلية، لأنّها تأتلف مع أنظمة الحياة كلّها، كالآليات النفسية، والسيميائية، واللسانية، والرمزية، والأسطورية، والتناصية، والإيديولوجية، ومن ثمَّ وجب درسها في نصّها وسياقها؛ لأنّها لا تحيا بلا روح، أوعندما تكون معزولة عن ظروفها التي أنتجتها، والفاعليات التي أحاطت بها في نشأتها وتكوّنها، فيكون تشكيلها ضمن رؤية كليّة غير مبتورة من الفكر والوعي والوجدان.فهي تحيا وفقا للقوانين الاجتماعية والثقافية التي تنظّم تقبّلها تداوليا. ومن ثمّ فهي تشكّل نظاما سيميائيا، وأنَّ سيميائية الاستعارة تمرّ عبر سيميائية الثقافة التي تجعلها مقبولة دلاليا، وتجعلها من حيث التواضع تحقّق تواصلا قابلا للفهم والتأويل[34]. وبالتالي لا بدّ أن يكون التقبّل الاستعاري قابلا للتواصل ضمن الجماعة اللغوية في دائرة التخاطب.

2- 3 - كيف ندرس الاستعارة؟

نعالج الاستعارة باعتبارها دالاً يتحقّق في المحور الاستبدالي بخرقه لقانون اللغة؛ لأنّ المبدع حينما ينشئ الخطاب الاستعاري إنّما يقوم بممارسة استبدالية تركيبية في مستوى محوري التأليف والاختيار، ويختلف المستويان، فالأوّل سياقي، والثاني استبدالي، وهو وحده الجدير بتسمية الاستعارة، والشاعر يؤثر في الرسالة لتغيير اللغة، وهي تشكيل لا بدّ أن يتمّ عبر قنوات تواصلية مهمّة يضبطها المرجع والقانون اللغوي التواصلي، ولا بدَّ أن ينشأ الخطاب الاستعاري ضمن مرجعية موحّدة، أو متقاربة؛ لأنّ ما يشكّله الشاعر قد يتصوّره المتلقي بطريقة مختلفة، ولذلك لا بدّ أن يحاط الخطاب الاستعاري بمعرفة واسعة، وبخاصة الروافد الثقافية المتنوّعة التي تساعد على الفهم وإمكان التأويل للتوصّل إلى الدلالة المقصودة، أو تكييفها بطريقة منطقية مُرضية. فهي فنّ لغوي تداولي يعطي للكلام قوّته[35]، وفعل تصوّري ينتج تشكيلا دلاليا، وانفعاليا، وشعريا.

ينشأ الخطاب الاستعاري بين المبدع والمتلقي عندما يكونا ضمن مرجعية موحّدة، أو متقاربة، ويكمن الفرق في كيفية الإدراك؛ لأنّ ما يشكّله الشاعر من تخيّلات قد يتصوّره المتلقي ويدركه بخلاف القصد، ولذلك لا بدّ أن يحاط الخطاب الاستعاري بمعرفة واسعة ، وبخاصة الروافد الثقافية المتنوّعة التي تساعد على الفهم وإمكان التأويل للتوصّل إلى الدلالة المقصودة، أو تكييفها بطريقة منطقية مُرضية.

- فالاستعارة من جهة المبدع نتاج عقلي يتضمّن رؤيا وتشكيل، إذ تجتمع الأشياء وتتصاهر، وتتركّب بطرائق مختلفة ما كان لها أن تتوحّد معا في الواقع، وبدمجها في تكوين جديد تتشكّل الصورة على غير مثال سابق. فتتجلّى الكيانات وقد أنتجت وفق خيارات رمزية، وتناصية، وإيديولوجية، ومعرفية، وتخيلية تلغي عنها طابع الواقعية.

- أمّا من جهة المتلقي فهي تأويل هذا النتاج ومعرفة طرائق تشكّله، ولا يحصل للمتلقي ذلك الفهم ما لم يحاول إدراك فهم مقصد المبدع ولو بإمكاناته عبر قرائن يجليها النصّ والسياق، فيكيّف دلالة تشكيل المبدع بحسب الدلالة التي يتوّصل إليها هو، ومنه يكون التعدّد، أو الاختلاف في قراءة الخطاب الاستعاري وفهمه وتأويله

ويتحقّق فهم الاستعارة بفهم مقامها التداولي الذي يتحقّق بتوظيف الحواس والطباع، والنظر، والفكر، والتجربة في صناعة القول الاستعاري وتأويله.

3-الاستعارة والتشبيه:

الفرق بين التشبيه والاستعارة هو أنّ التشبيه يحاكي بين طرفين للتشارك والتناسب والاشتراك فيشعر أنّ طرفا كغيره لا غيره نفسه، أمّا الاستعارة فتجعل الشيء غيره[36].

نمثّله في قول لسان الدين بن الخطيب[37] (الطويل):

كَأَنَّ لِسَانَ الدَّهْرِ نَفْثُ يَرَاعِهِ يُتَرْجِمُ عَمَّا أَضْمَرَتْهُ المَقاديرُ **(538/12)**

وتتمّ فيه المقاربات بين الاستعارات، وهي تقريب المعنوي بالمعنوي، لسان الدهر، ونفث اليراع، وهي عوالم غير واقعية، وإنّما هي شعرية متخيّلة، وجدت على غير العادة :

الدال : - لسَانَ الدَّهْرِ

– نَفْثُ يَرَاعِهِ

المدلول (1) : - الدهر ناطق

– سحر قلمه

المدلول (2) : - الكلام (منطق كل شيء)

- بيان القلم وفصاحته (بلاغة ما يكتب من منظوم ومنثور)

وهي أيضا من الاستعارات التي ترتبط بما قبلها وما بعدها ، ذلك أن الهاء من يراعه تعود على أبي الحسن بن الجيّاب ، ولذلك فهي دال مضمر يكشفه الفهم والتأويل، إذ لا يعرف أنّ للدهر لسانا، ولكنّ اللسان معروف حسيّا، ونسبته إلى الدهر جعلته نتاجا جديدا،فالدهر فصيح، اليراع: ساحر ،وهو سببا البيان والبلاغة، فإذن هناك حركة متلازمة، وكأنّه يريد أنّ كل كلام بليغ ينطق به الإنسان فمصدره ما خطّه قلم ابن جيّاب، فهو ينسب إليه البلاغة والفصاحة، فالشاعر يتحدّث عن البلاغة ببلاغة ، ويتحدث عن بيان الكلام بكلام البيان.(بلاغة الخطاب وخطاب البلاغة).

إنّ معنى لسان الدهر في سياق القصيدة هو ما ينطق به الحال، ومعنى نفث يراعه " بيان وبلاغة ما يسطره قلم الشيخ أبو الحسن بن الجياب " فعبارة لسان الدهر النافث يراعه حقيقتها العلم والبيان، فقد بدأت الواقعة الشعرية منذ أن أطلق على ما ينطق به من العلم والبيان لسان، وعن الفصاحة والبيان بنفث اليراع.

فالمتلقي عندما يستقبل هذا الخطاب يضطرّ إلى القيام بتفكيك ثان لينتج مدلولا جديدا، وهو ما يدفعه إلى الاستبدال؛ لأنّ الاقتصار على المدلول الأوّل – " الدهر ناطق" لا يقدّم إضافة، و يجعل الكلمات منافرة

، ويحاول أن يستعيد الملاءمة من خلال المدلول الثاني" منطق الحياة" ، فكانت العلاقة بين المدلول الأوّل والمدلول الثاني علاقة متغيّرة، وذلك لنفي الانزياح المترتب عن هذه المنافرة.

فهذه الاستعارة ذات مدلول وجداني مدحي فخري، وبعدها أدبي، وهو من الاستعارات الرمزية، لأنّ القلم هو رمز الكتابة والعلم، وأنّ الممدوح صاحب قلم ساحر، يعني أنّه ذو كتابة راقية .

ومن ذلك أيضا تشكيل لسان الدين بن الخطيب: (الخفيف)

وكأنَّ الجُفُـونَ إذْ غِبْتَ عنْهَا نَحَرَتْ دَمْعَهَا لِضَيْفِ السُّـهَادِ **(449/3)**

والمقام مقام مدح وليس مقام غزل، فهو أنشده في أبي الفضل – سليمان بن داود المبرّ بالأخلاق – وهو إشعار بالكمد بسبب غيابه عن سواد العين، وإن لم يغب عن سواد الفؤاد فالشاعر يعبّر بالصورة الحسيّة المتخيّلة (نحر دمع الجفن،وإكرام ضيف السهاد) عن المعنى الذهني (الودّ والإخلاص)، والحال النفسية (البكاء والضجر)، وعن الحادث المحسوس،والمشهد المنظور(الذبح، وتقديم القرى)، ثمّ يرتقي بالصورة عندما يمنحها الحياة الشاخصة، فيمدّها بالحركة المتجدّدة، فيتجلّى المعنى الذهني هيئة، أو حالا نفسية، أو مشهدا ، فيضمن للتشكيل الاستعاري إيقاعا ذا حركة تتفاوت بقيمة الأفعال المحرّكة للخيال ونشاط المتصوّرات.

جعلت الاستعارة هنا للمبالغة ، ذلك أنّ الشاعر جعل منها نسيجا متشعّبا من الخواص البلاغية، إذ تفاعلت مع أسلوب التشبيه ليجعل الاستعارة أكثر فاعلية ، ذلك أن المتلقي لا يجد صعوبة في فهم الدلالة، ولكن عليه أن يدرك ما شكّله الشاعر بوعي، وكأنّه يسلّط الفاعلية التناصية وهي الكرم بأعزّ وأغلى ما يملك الإنسان كما فعل حاتم الطائي، وها هو الجفن يجود بالأعز وهو الدمع الذي لا يجري إلا للجليل فنحره وقدّمه قرى ، وأيّ ضيف هو السهاد، ذلك ليتوصّل المتلقّي أنّ ما يثيره الغياب هو البكاء، والسهر مع الأرق، وهو ليس بكاء بل هو يستحقّه وهو دليل تعلّقه بمن يودّ، وهو من الإخلاص. وهي قمّة المعاناة النفسية حينما يمتزج فيها البكاء والأرق.

خاتمة:

لا ينبغي أن نقع في الجدل : فنرمي البلاغة بالقصور والركود بسبب هيمنة المناهج الغربية عليها في تحليل الخطاب، كما لا ينبغي أن نستغرق طويلا في إذلال العقل العربي ووصفه بالجمود وانحيازه لثقافات الغرب، فكلّ أمر قد حدث، ولا بدّ من التأثير والتأثر، ومعرفة أفكار الإنسانية والتفاعل بينها مهمّ للتواصل، ولكن في حدود الشخصية والثوابت القومية والعقدية التي تلزمنا بالانفتاح أو الالتفاف بما لدينا.

والرأي أنّ لنا بلاغة لها أصولها وجذورها موغلة في التاريخ لابدّ من إحيائها وتطويرها وبعثها من جديد، ولا يكون ذلك بجهود فردية، أو جماعية، وإنّما بجهود قومية، وإرادة سياسية ، وتخطيط علمي يكفل لها إنجاح العودة، ولمَ لا استثمارها في تحليل الخطابات .

إنّ الدعوة الحقيقية هي دعوة تطوير المناهج والمعرفة لا تغييرها وتبديلها بغيرها، بل إصلاح منطقها على ما يجب إصلاحه في هذه المرحلة الحضارية المعقّدة التي يعيشها المجتمع العربي اليوم التي أصبحت فيها تائهة في غياب التخطيط العلمي، والاستقرار الحضاري والفكري، والعقدي. فضلا عن سيطرة الثقافة الغربية بسبب الغزو الثقافي الغربي، وتحدّيات العولمة التي أوقعتها في شراك يعسر الإفلات منها بسهولة.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

1 - أحمد بسام ساعي، الصورة البيانية بين البلاغة والنقد، المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1984.

2 - أحمد طايعي، التواصل البلاغي من المصرّح به إلى المسكوت عنه، منشورات زاوية،ط1، الرباط، 2008.

3 - ألفت كمال الروبي،نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد،دار التنوير للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت: لبنان، 2007.

4-أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة . تر:أحمد الصمعي،المنظمة العربية للترجمة، بيروت: لبنان،2005.

5 - خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين السكاكي نموذجا، أعمال ندوة صناعة المعنى وتأويل النص، 1991، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1992 تونس.

6 - رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الأسكندرية، ط2، 1988.

7 - ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت، 2004.

8 - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب،

عبد القاهر الجرجاني

9- دلائل الإعجاز، تح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة: بيروت، د.ت.

10- أسرار البلاغة، تح مصطفى شيخ مصطفى وميسّر العقاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2004.

عمر أوكان،

11- لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارت، أفريقيا الشرق،1996.

12- اللغة والخاطب، أفريقيا الشرق، المغرب، 2001.

13- لسان الدين بن الخطيب، ديوان الصيّب والجهام، والماضي والكهام، تح:محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1973.

14- محمد مشبال، البلاغة و الأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي، نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق: المغرب، 2007.

15- محمد الهادي عطوي، البلاغة من سلطة المعيار إلى جمود العقل : رؤية في الأصالة والمعاصرة، مجلّة اللسانيات واللغة العربية – قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار- عنابة ، العدد: التاسع سنة 2014.

16 - محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، دراسة بلاغية نقدية، دار نشر المعرفة: الرباط،ط1، 2003.

17 - أبو هلال العسكري ،كتاب الصناعتين:الكتابة والشعر، تح:عليّ محمد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية: بيروت،ط1، 2006، ص13.

18 - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، 1995.

(1) نشر في مجلّة اللسانيات واللغة العربية – جامعة باجي مختار- عنابة ، العدد: التاسع سنة 2014.

(2)أسرار البلاغة،ص10.

([3]) كتاب الصناعتين ، ص13.
([4])المرجع نفسه ، ص ن
([5]) م ن ، ص 14.
([6]) خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين السكاكي نموذجا، ، ص 157.

([7]) أحمد طايعي، التواصل البلاغي ، ص17.
([8]) دلائل الإعجاز، ص32.
([9]) التواصل البلاغي ، ص18.
([10]) رجاء عيد، فلسفة البلاغة، ص11.
([11]) التواصل البلاغي ص18.
([12])عمر أوكان، لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارت، ص56.
([13])العمدة ، 212/1.
([14] لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارت ، ص56.
([15]) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ص23.
([16]) محمد مشبال، البلاغة و الأصول ، ص10.
([17])عمر أوكان، اللغة والخاطب، ص99.
([18]) التواصل البلاغي ، ص19، 20.
([19]) المرجع نفسه ، ص29.
([20]) أحمد بسام ساعي، الصورة البيانية بين البلاغة والنقد، ص19.
([21])عمر أوكان، لذة النص، ص29.
([22]) سورة الطارق ، الآية:5-7.
([23]) أحمد طايعي، التواصل البلاغي ، ص46،47.
([24]) محمد مشبال، البلاغة و الأصول، ص5.
المرجع نفسه ص13.
([26])دلائل الإعجاز ، ص53.
([27]) محمد الواسطي، ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين، ص121.
([28]) أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة ،ص110.
([29]) منها: النقل، والتحويل، والتركيب، والامتصاص، والانصهار، والاستبدال، والتفاعل، والمنافرة ، والغرابة، والنماء، والتجدّد ، وغيرها.
([30]) كتاب الصناعتين، ص242.
([31]) م ن، ص 240.
([32]) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر ، ص114.
([33]) ألفت كمال الروبي،نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ، ص209.
([34]) أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ص242.
([35]) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر ، ص114.
([36]) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص209.
([37]) ديوان الصيّب والجهام، والماضي والكهام، ص538.